



١٩

مكتبي

وَفِي يَدِهِ حَجَرٌ وَقِصَصٌ أُخْرَى

بقلم: لينا كيلاني

رسوم: ممتاز البحرة



دار المعارف

دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة: ج. م. ع.

.....
إعداد الماكيت: أماني والي

"إبراهيم... إبراهيم... ابق معنا يا إبراهيم... لا تذهب معهم في جنازة الشهيد... أنت زعيمنا يا إبراهيم... أنت أكبر واحد بيننا يا إبراهيم... أنت أصد بت ب. الأمس ع. دة جذ. ود بحجارتك يا إبراهيم... نحن رفاقك يا إبراهيم... نحن بحاجة إليك يا إبراهيم... س. نغير موقعنا... سننتقل إلى مكان آخر يا إبراهيم..."

كانت هذه العبارات تُقع على مسامع إبراهيم من رفاقه المجتمعين في زاوية الشارع وهم ينتظرون مرور جنازة الشهيد حتى ينطلقوا وراءها بصراخهم وحجارتهم المصوبة إلى الجنود.... وبكلماتهم الجارحة أيضا... لكن إبراهيم لم يستجب لهم بل ظل متوجها بعقله وقلبه نحو مسيرة الجنازة. ماذا يقول لهؤلاء الرفاق الذين سهروا الليل كله وهم يجمعون الحجارة يكومونها في الزوايا أو يخبئونها وراء الجدران المهدمة؟

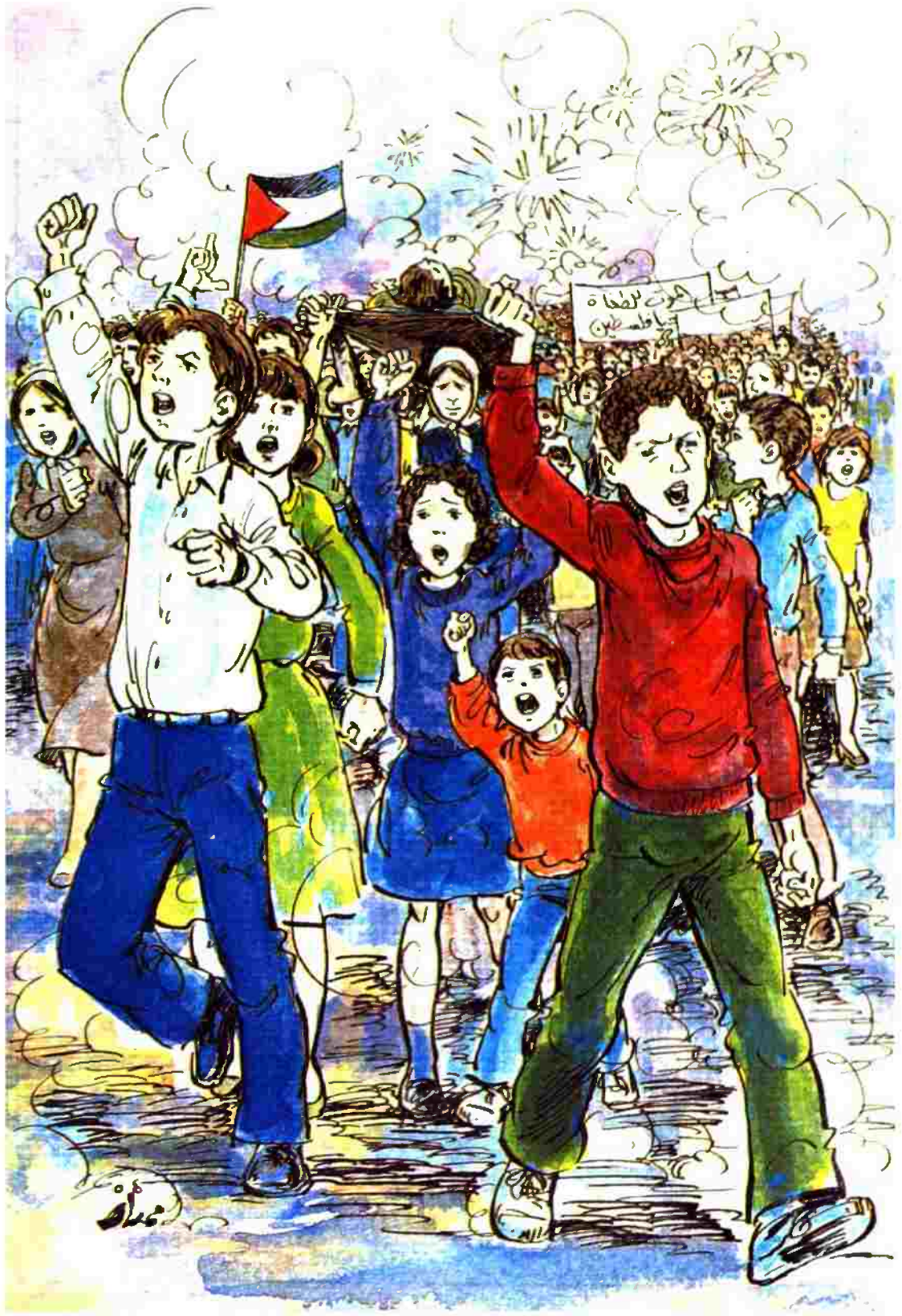
هل يقول لهم إن الجنود الإسرائيليين كنسوا كل الزوايا ونظفوها من الحجارة بعد أن ذهبوا.... ولما عثروا على الأخرى وراء الجدران أزالوها إذ حملوها في شاحنة وأخفوها؟

هل يقول لهم إنهم يفقدون كل شيء حتى سلاحهم الصغير البسيط هذا؟... في الصباح رأى بغينه جنودا إسرائيليين يقلبون بين أيديهم زجاجات فارغة... وأخرى مليئة بالبنزين وهم يسبون ويشتمون... لعلهم صادروها من بيوت عربية... أو عثروا عليها مخبأة هنا وهناك.

إبراهيم يستمر في سيره البطيء... وأصوات الم. شيعين وراءه تقذ. رب من. ه أكثر. ر وأكثر... الله أكبر... الله أكبر... والتهافت تشق الفضاء ضارعة إلى السماء... أخذ يردد في سره بعض هذه التهافت ويقرأ آيات من القرآن الكريم بينما عيناه تفتشان في كل ش. بر. م. ن الأرض عن حجر... يا لهؤلاء الصهاينة المكرة الفجرة.

كأنما نظفوا الشوارع تنظيلاً... إن مناظر الجنازات للشهداء مكشوفة الرعوس وهي تحمل على الأيدي والأكتاف لا تهز فيهم أي وتر لضمير... ومتى كان لهؤلاء الطغاة الق. ساة ضمائهم؟ ألا يهدمون البيوت فوق رعوس ساكنيها.. ويصوبون مدافعهم ورشاشاتهم على كل المارة ولو كانوا نساء أو شيوخاً. والأطفال هل يشعرون بأي عطف أو إنسانية نحو الأطفال؟ لا... لقد أصبحوا وكأنهم أعداء لهم... يعذبونهم، ويسجنونهم، ويصيبونهم، بالرصاص القاتل. أيضاً... سارة... ومحمود. وياسر.. ومحمد... وسامر... كلهم ماتوا بالرصاص الحي. هؤلاء الذين عرفهم ومن لا يفرهم عددهم بالطبع أكثر.

تزداد الأصوات قرباً من إبراهيم... وفجأة يجد نفسه في قلب الحشد الذي يشيع الشهيد في طريقه إلى مقبرة الشهداء. حسناً... سيواصل سيره مع الموكب... وسيعثر على حجر... لا بد أن المقبرة مليئة بالحجارة ولو كان قطعاً من البلاط أو الرخام. يسير والجماهير يزداد عددها حتى تملأ الشوارع كلها... ألوف الألوف من الناس... يا الله!! يقول إبراهيم في نفسه:



لو كان مع كل واحدٍ منهم حجرا ما كانوا يستطيعون أن يفعلوا شيئا؟ ولكن لا.. الكبار لا يقذفون الحجارة... إنها لهم فقط هم الصغار... الكبار يظلمون حقاً ساطعا وصدوتا... معه العالم... وإدانة وتجريما لإسرائيل التي تعتدي على شعب أعزل... هذا ما يسمعه ممن حوله... ولو أنه لا يفهمه جيدا... إنه يريد الحجر... حجر وكفى... صحيح أن الحجر لا يقتل إذ سائنا إلا إذا أصابه بمقتل وهذا نادر... لكنه ربما يجعل هؤلاء المغتصبين يشعرون أنهم ليسوا في أرضهم وبلادهم... وأنهم مكروهون ولا أحد يريدهم... وأنهم أعداء ولا يمكن أن يصبخوا أهلاً أو أصدقاء... الحجر أصبح لغتنا نحن الصغار... إلا أن هؤلاء لا يفهمون... منذ متى هي لغتنا؟؟.. منذ سنوات... أنا كنت صغيرا جدا في الانتفاضة الأولى... لكنني الآن أصبحت يافعا في الرابعة عشرة... وأحس كأنما ولدت وفي يدي حجر.

إبراهيم في حوارهِ مع نفسه لا يشعر أين تسير به قدماه... والرصد... اص... بدأ ينهمر وتتعالى الأصوات... يلتصقُ بمن حوله.. يقترب من النعش المحمول... يمد قامته لينظر إلى وجه الشهيد المكشوف... يرتعد... وكأنما تخذله ساقاه ليقع على الأرض... لا... لا... لا... سيظل مرفوع القامة.. شجاعا ثابتاً فهو فلسطيني وصاحب حق.. يتفرق الناس من حوله، جماعة هنا وجماعة هناك... الرصاص متواصل.. والمسيرة مهما تفرقت فهي متواصلة.

مسافة قصيرةً ويصلون إلى المقبرة... امسك نفسك يا إبراهيم تشجع... لا تتخذ. اذل..
استمر في البحث عن الحجر... يكفي أن تقذفه لتتطفئ هذه النار المشتعلة في قلبك.

وفي موجة من أمواج تفريق المشيعين يجد إبراهيم نفسه مفقوداً أمام بيت مهدمٍ هجره
ساكنوه... حسناً هنا حجارة كثيرة.. ينفلت من بين الناس حوله... يركض باتجاه البيت... ليت
رفاقه يلحقون به الآن فوراً... ليت ريحا تحملهم إلى هنا لعثروا جميعاً على كنز من الحجارة
ربما يصيبون بها فرقة كاملة من الجنود ويرفعون بذلك أذاهم عن أهلهم وناسهم.

يسرع الخطى نحو الحجارة التي كانت تتأديه.. وكأنما كل حجر فيها وجه في وجه. وه
الشهداء يصرخ به. أسرع أكثر وكأنه يطير في الهواء... يم يهبط لاهثاً متعباً... يقبض على
حجر دون أن يتلفت حوله... يأخذ حجراً ثانياً وثالثاً ورابعاً ويخفيه. الجميع في قميصه
وجيوبه.. يوشك أن ينطلق بها دون أن يشعر بثقلها... لكن عيناً شيطانية كانت ترصده. ما أ،
مشى خطوة أو اثنتين حتى أصابه الرصاص. سقط على الأرض كتلة من الدماء... تمزقت
ثيابه... تساقطت الحجارة الدامية... وصعدت روحه إلى السماء.

عندما حملوا إبراهيم إلى المستشفى وهم يأملون بإنقاذه منشغلين بالرصاصة التي ثقتُ رأسه والأخرى عنقه... لم ينتبه أحد إلى يديه... لكنهم عندما لفوه بكفن الشهداء لاحظ الجميع أنه استشهد وفي يده حجر... وارتفع الدعاء له بالرحمة إلى الله تعالى الذي فضل الشهداء على سائر البشر ليجمعهم مع الأنبياء والصديقين والمخلصين من عباده الصالحين.



أخي محمد

قالت الأم لولدها أحمد أن يبقى في البيت ليرعى أخاه محمداً، وأوصته ألا يخرج أبداً لأنهم في هذا اليوم ككل يوم منذُ شهرٍ يتعرضون لاعتداء الجنود الإسرائيليين عليهم.

قال أحمد:

ولكني يا أمي أريد أن أدافع مثلكم... وأرمي الحجارة على الأعداء.

نظرت الأم إلى يديه النحيلتين، ومسحت فوق رأسه وقالت:

- لا زلتَ صغيراً يا بني... ولن تحتمل قسوة الأعداء إذا قبضوا عليك... يكف.. ي أن تحرس لنا البيت، وتمنع أخاك من أن يخرج أيضاً.

وأطاع أحمد أوامر أمه ولكنه حزين لأنهم يعاملونه كطفل صغيرٍ ضعيفٍ، بينما كثير من الأطفال يشاركون أهاليهم في التصدي لجنود العدو.

جلس في زاويةِ الغرفةِ يلعبُ مع أخيه محمدٍ ببعضِ الحصى وقطعِ الحجارةِ الصغيرةِ التي جمعوها بالأمس مع باقي الأولادِ في الحارةِ، وأخذوا يبنيانِ منها شكلاً يشبه ثكنةَ عسكرية، ويضعانِ فيها سكاكينِ المطبخِ والعصي على أنها السلاح.

قال محمد:

- خذْ يا أحمد هذه الطائرة المحطمة لقد أسقطها العرب ووقعتُ هنا بين أيدينا.

قال أحمد:

- ولكننا لا نملك الطائرات... هذا ما كانوا يقولونه بالأمس.

ثم إن الطائرة لا تكون في الثكنة بل في المطار.

وصمتَ الاثنانِ بينما تفجرت الأصواتُ في الحارةِ، وسمعا وقعَ الجارة مثل المطر. وبعد قليلٍ سمعا صراخَ جارتها أم فتحي وهي تولول وتصيح: ابني.. ابني... وفجأة تحط. م زجاج النافذة فوق رأسيهما وسقط على الأرض.

قال محمد:

- لم يبقَ غيرنا في البيتِ يا أحمدِ. هيا نخرج ونضرب الأعداء بالحجارة. إنها كثيرةُ
أمام الأبواب.

قال أحمد:

- ولكن أُمي أوصتني ألا نخرج، وألا أترك وحدك!

قال محمد:

- تتركُنِي؟ هل أنا صغير؟ هل تخافُ أنت...؟ أنا لا أخافُ.

وأسرع نحو الباب، لكن أحمد أرجعه بقوة، وقال:

- سأذهب أنا... وأمرى العدو... وإذا سألتنا أُمي سأجيب أنك أنت الذي قلتَ لي أن
أفعل.

وخرج أحمد مسرعا، وشفقَ باب الدار وراءه بقوة، بينما كان محمد يضحك ويبتدئ
تحت سريره عن حجارة كان قد خبأها سرا.

قفز محمد إلى النافذة العالية فتساقط التراب من أطرافها، ونظر إلى الجند. ود الذين يحومون حول البيت فقفز حجراً وخبأ رأسه، وأعاد الكرة ثلاث مرات حتى سد مع صدوت الحجر فوق خوذة الجندي. فهرب من النافذة، وأخذ يبحث عن مكان في الغرفة يختبئ فيه.

مضت دقائق من الصمت... ومحمد مختبئ... وقلبه الصغيرة يخفق بشدة وهو ينصت إلى أصوات تقترب منه. ها هو يسمع صوت أحد يردد اسمه. رفع محمد رأسه وخرج من مخبئه وركض نحو باب الغرفة ينادي: أحمد... أحمد... وفجأة تحطم الباب ودخل جند. ديان طويلان عريضان، وهما يمسكان بعنق أحمد وهو لا يبكي رغم أن وجهه ملوث بالدم وجهته مجروحة.

قال الجندي الأول:

- دلنا على أخيك محمد ذاك الذي كان يرمينا بالحجارة ودفعك لتفعل مثله.. أين هو؟

- تلفت الجندي غاضباً بينما التصق محمد بالجدار. عاد الجندي ليصرخ في وجهه.

أحمد:

- لماذا لا تجيب أين هو؟

نظر أحمد إلى أخيه بإشفاقٍ وندمٍ وهو يظن أنهم إن رأوه فلن يأخذوه لأذنه أصد. غر منه... بل لأنه صغير جداً.. فقال وصته يرتجفُ:

- هذا هو أخي محمد.

صفع الجندي الثاني أحمد صفقةً قويةً، وقال له:

- هل تسخر منّا أيها العربي الصغير؟ إن أخاك هذا لا يتجاوز عمره أربع سنين. سنأخذك إلى السجن، أنت تكذب... وأنت مخرأ.

استجمع محمد شجاعته واقترب من الجنديين الإسرائيليين، وقال:

- أنا محمد... أنا أخوه.. وهو أخي.. خذوني معه.. خذوني.

ونظر الجنديان الإسرائيليان أحدهما للآخر غير مصدقين عندما دخلت الأم ملهوفة. وهي تُنادي:

- أحمد... محمد.. يا ولدي.. هل أصابكما شيء؟

ولما فوجئت بالجنديين الإسرائيليين وهما يجران الصغيرين هجمت مثل نمرّة قاتلة:

- أنا فداهما. افعلما تريدان بي ولكن اتركا الصغيرين.

ولم يستمع لها الإسرائيليان بل دفعا الطفلين بأعقاب البنادق إلى سيارة عسكرية كانت تقف في طرف الحارة. وانطلقت السيارة بينما الأم المسكينة تـ. صيح وتـ. ركض وراءها. ولا تعرفُ بمن تستنجد.. وكأن أبواب الدنيا سدت أمامها بينما اختفتْ دورية العدو مع الطفلين وغابت عن الأعين.



مريم وسارة

مريم بنتٌ مسيحيةٌ لطيفةٌ.. ينادونها (مِريام).. و (م.اري).. و (ماري.ا).. وبأسد. ماء كثيرة. لكنها تحب اسم (مريم) فقط لأنها عربية.. وأن رفيقتها المسلمة (سارة) تُناديها به.

(مريم) منشغلةٌ هذه الأيام كثيرةً بعيدِ الميلادِ... تبحثُ عن الزيد. ات.. وال. شموع... والأجراسِ الفضيةِ والذهبيةِ الصغيرةِ وكل ما يزين شجرةَ عيدِ الميلادِ... أما الشجرةُ نفسها فقد اتفقتْ مع (سارة) أن تذهبا خارجَ بلدتهما (بيت لحم) مهد المسيح عليه الد. سلام لتعش. را على شجرةٍ صغيرةٍ في الغابةِ الصغيرةِ، و(سارة) تقول:

- إذا منعنا الإسرائيليون... أو لم نعثر على شجرةٍ حسب الطلبِ نستطيع حملها فأذ. ا أملك نقودا... سأسلفك إياها ونشتري شجرةً اصطناعية.

وتضحك (مريم)... وتعانقُ رفيقتها شاكراً لها عطفها وتدعوها إلى زيارتهم كل ليلة. عندما تنتهي من الشجرةِ وزينتها... وتنتهي الأم من صنع الحلوى وتهيئتها.

سارة تقولُ:

- طبعاً سأتي إليكم... ليس كلُّ ليلةٍ بلُ حسب الظروف.

تعرفين كم أصبح صعباً التنقُّلُ من حي إلى آخر.. وأخي (سالم) مسافر الآن... م.ن سيوصلني إذن؟

وفي ليلة عيد الميلاد... وقد تهيأ كلُّ شيءٍ للمناسبة.. لبستُ (مريم) أجمل ثيابها بينما أجراس الكنائس تملأ السماء برنينٍ عذبٍ، ثم اتجهتُ نحو الحي الذي تقطنه (سارة) لتد. صاحبها معها إلى الكنيسة، (سارة) قالتُ لها:

- أنا أحبُّ الذهاب إلى الكنائس.. أليستُ بيوتُ الله كالمساجد؟ وقد اشد. تربتُ شد. موعاً لأشعلها هناك.

وتتذكر أنهضاً قالتُ لها:

- وماذا ستتمنين وأنت تشعلين الشموع؟

فهمستُ لها (سارة):

- لن أتمنى إلا أن نتحرر من هؤلاء الإسرائيليين فلا يراقبوننا.. ولا يقطعون م.ا. يفعلون بنا.. صحيح أنني صغيرةُ وفتحتُ عيني علي هذا الحال لكن أهلي يروون ل.ي كي.ف. كانت أعياد الميلاد أيام زمان، لعلها كانت شيئاً في جنة الخلد.

تسرع (مريم) خطواتها عندما تفاجأ بجندي إسرائيلي يستوقفها ليسألها:

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟ ألا تعرفين أن التنقل ممنوع؟

تجيبه غاضبة:

لكنني لن أبتعد... أنا ذاهبة إلى ذا الحي القريب.

وتشير بيدها إلى حيث بيت (سارة):

- سأذهب سريعاً.. وأعود سريعاً.. انتبه.. سأعود مع رفيقتي (سارة).

يفتح الجندي عينيه بدهشة لم تفهمها:

وهل تسكن سارة هنا؟... على أي حال اذهبي..

ولم تدرك (مريم) من كان يقصد... (سارة) رفيقتها أم (سارة) الأخرى!!

المهم أنها وصلت إلى (سارة) رفيقتها وفي طريق العودة كانت (مريم) تحدث (سارة) عما جرى معها وتضحكان. برز جندي إسرائيلي آخر غير الذي كان قبله.. م. سلح وال. شرر يطير من عينيه، يقول:



- إلى الكنيسة طبعاً.. لكن الاحتفال ألغي وعليكما الرجوع من حيث أنتمما.

تقول (مريم):

- لكن بيتي هناك.. في الجهة المقابلة.. ورفيقتي ستأتي معي...

يقول بإصرار:

- بل تذهب كل واحدة إلى بيتها... مفهوم؟

وتتفصل الرفيقتان (مريم) و(سارة) والدموع في العيون... وبمّا أن الوقت كان مساء... والأنوار قليلة فلم تلاحظ إحداهما الأخرى كيف لوحّت لها بيدها وأعطتهن إشارات معينة.

وفي طريق الرجوع تذكرت (مريم) تلك اليهودية الصغيرة (سارة) التي تعرفت بهن ذات مرة في السوق... وأعطتهن عنوانها وطلبت منها زيارتها لكن أهلها لم يوافقوا على ذلك...

فهم لا يطمئنون إلى هؤلاء اليهود الذين اغتصبوا بيوت الفلسطينيين يعيد شون ف.ي أجزاء منها مع أصحابها ثم يعملون على إيداعهم بشئى السبل حتى يتركوا لهم البيوت كاملة. و(مريم) قالت لوالدها آنذاك:

- لكن (سارة) هذه بنت هادئة، ولا أظنّها تفعل ذلك...

لقد روت لي شيئاً عن حياتها.

رد الأب:

- تظنين أو لا تظنين... لن تذهبي إليها ولن تأتي إليك وكفى.

قالت (مريم):

- أنا لم أعطيها عنواني.. بل رفيقتي (سارة الحسني) هي التي فعلت.

قال الأب:

- بنتان طائشتان.. أنت ورفيقتك. ألا تعرفان أن كل يهودي مهاجر أو غير مه.اجر هنا لا يريد لنا الخير.. بل لا يريد بقاءنا على هذه الأرض؟ احذري يا (مريم) نحن في ه.ذه البلاد مسالمون.. من مسلمين ومسيحيين.. ولا نريد سوى السلام على أرضنا أرض "م.سيح السلام".

وبينما الأب يهيم بمتابعة نصائح المعتادة بالابتعاد عن الإسرائيليين وعدم الاحتكاك بهم درءاً للأذى والشر سمع دوي انفجارٍ شديدٍ في الحي المقابل... ذعرت (مريم) وهرعت إلى النافذة ثم قالت:

- الدخان من جهة بيت (سارة) يا أبي... يمكن أنها أصيبت أو هدم بيتهم.

قال الأب:

- بيتها.. أو بيت غيرها... كلها مصائب تقع على رؤوسنا جميعا.

لا نستطيع أن نتأكد إلا من (الإذاعة) أو (التلفزيون). تعالي نسمع أو نرى.

وانتقلا بسرعة إلى غرفة الجلوس.. (التلفزيون) لم يبث أي خبر... لكن الإذاعة كانت أسرع فأخبرت أن انفجارا وقع في منزلٍ قديمه... وهناك ضحايا من بينهم طفلة اسمها (سارة)... بعد تفتيش البيت لاعتقال أحد المناضلين النشطاء...

واشتد قلق (مريم).. ترى هل هي (سارة) رفيقتها... أم (سارة) الأخرى اليهودية؟ إنها لا تريد الأذى لأحد... ولكن ما دام يوجد ظلم وعدوان لابد لها أن تحدد موقفها من هؤلاء اليهود. لماذا يدمرون البيوت ويعتقلون الشبان؟ أليست البيوت لأصحابها والشبان يدافعون عن حقوقهم وحقوق أهاليهم؟

وهذه الـ (سارة) اليهودية التي تعرفتُ إليها... ألـ نـ تـ صبح فـ ي المـ ستقبل مثـ ل
جماعتها.. كارهة للعرب وحاقدة عليهم وربما تنتقم منهم؟ لماذا تقبل أن تعيش في جزء مـ ن
بيت العرب؟... لا... لقد أخطأت في ظنّها... كما أخطأت (سارة الحسني) في أنّها... أعطتها...
عنوانها. ألا يمكن أن تكون هي التي أعطت العنوان لجماعتها في الجيش الإسرائيلي لينـ سفوا
بيت (سارة الحسني) بعد أن عرفت أن أخاها هو (نبيل) المناضل المعروف؟

(مريم) في حيرة من أمرها... تتمنى لو أن التي أصيبت هي (سارة) اليهودية وليست
(سارة الحسني)... كانت نشرة الأخبار تبث الخبر مفصلاً وبتعليقات شامتة وبالعربية أيضاً.

غطت (مريم) وجهها بكفيها وأخذت تبكي بكاء شديداً... بينما انطفأت أضواء شـ جـ رة
الميلاد... وكأنما كانت تسمع صوتاً فيروزياً يردد:

- (الطفل في المغارة وأمه مريم وجهان ييكيان)

وهتفت مع الصوت:

- (وإنني أصلي).



الأثر الثمين إلى روح الشهيد محمد الدرة

اجتمعت العائلة عند الصباح على طعام الفطور... الأم والأب والأولاد الستة... بيئهم في مخيم (البريج)... يسمونه مخيماً لكنها منازل سكنية متواضعة تجمع أعداداً كبيرة من الفلسطينيين الذين سلبهم المحتلون الصهاينة أراضيهم وأموالهم وحريتهم أيضاً فهم لا ينتقلون من مكان إلى آخر إلا بتصريح من السلطات العسكرية.. ولا يزورون أقرباءهم في أية مدينة إلا كذلك.. وحتى دخول المدرسة يجتاح إلى (أذونات) والأب الذي يشتغل في عمق فلسطين وهي الآن إسرائيل يذوق العذاب من أجل تصريح العمل. ويسألونه ويفتشونه صباح مساء.

عندما اجتمعت الأسرة كانت الانتفاضة قد اشتعلت في القدس أولاً.. وهي تمتد خارجها إلى المدن الفلسطينية في الحكم الذاتي.

الأم تبدو قلقة... والأب يكتم غضبه.. فالأولاد لا يكادون يخرجون من الحارة.. ولو أنهم ظلوا في البيت لكان أفضل لأن الصغار جميعاً أصبحوا يهربون من أهاليهم ليشاركوا في رمي الحجارة على الجنود الإسرائيليين، وكل يوم يزداد عدد هؤلاء الجند المسلحين... والحق في عيونهم.. ولو أن طفلاً رمى بحجر لعاقبوا الأطفال جميعاً.. فنهروهم وهددوهم وأمرهم بالرجوع إلى بيوتهم. لكن الأخبار... أنهم الآن أصبحوا يطلقون النار.

محمد ابن الثانية عشرة... اشترك عدة مرات مع رفاقه في رمي الحجارة لكذبة لم يعترف لأمه وأبيه بذلك... ولو فعل لعنفته أمه... ولغضب أبوه... هل لهذا علاقة بعمل أبيه... أو (لقمة العيش) كما يقولون؟... أم أن عداة الإسرائيليين لهم أمر عام يسري على الجميع؟! ربما... ورفاقه في المدرسة والحارة يهيئون خطة كي يشاركوا في أول مظاهرة احتجاج. تتطلق من المخيم. سيشارك فيها... نعم سيشارك... ولن يغضب أبوه... لأنه الكبار كلهم أصبحوا غاضبين لما يجري.

تقول أخته الصغرى:

- ألا تأخذنا يا محمد إلى بيت عمتي؟... إنه قريب من هنا.

يرد محمد:

- لا... لن آخذك أنت وأختك... فأنا اليوم مشغول جدا.

يهتف أخوه الأصغر:

- وبماذا أنت مشغول إن شاء الله؟... ثم إن والدنا يقول أننا جميعا لن نخرج من البيت.

يرد محمد:

- ربما أنتم ستبقون... أما أنا فسأذهب معه لنشتري سيارة.

يصرخ الجميع فرحين: سيارة... سيارة... سوف نخرج إذن كل يوم جمعة للنزهة..

تضيف الأخت الكبرى:

- وسنزور أقاربنا في الضفة.

يقول الآخر:

- ذلك بعد أن نتفرج على غزاة كلها وشاطئ البحر.

ومحمد لم يعد يسمع شيئاً... كأن أصوات المتظاهرين الذين رأه.م على شاشة

التلفزيون تسد أذنيه... كأن صورتهم وهم يحرقون العلم الإسرائيلي تطمس الرؤية أمامه.

الأم تنادي:

- محمد.. محمد.. هل أصبحت جاهزاً؟

وعندما يرد عليها: نعم يا أمي. تقترب منه بسرعة وتقول:

- ليتك لا تذهب مع أبيك اليوم... فربما أحتجتُ إليك بشيء.

يقول محمد:

- وما هو هذا الشيء؟... سأذهب... فقد وعدني أبي.

وتشعر الأم أن قلبها منقبض... ما أن مسحت فوق رأس محمد وقبلته حتى أدست وكأنه أصبح شاباً أو رجلاً صغيراً... قالت بصوت خافت:

- بالسلامة يا ولدي.. حفظ الله ورعاك.

في الطريق كان محمد صامتاً... يمشي إلى جانب والديه دون أن يمسك بيده، والأصوات والصور تتوالى في سمعه وفي خياله... وعندما وصلا مفترق الشهداء أصدحت الأصوات حقيقة وقال الأب:

إنها مظاهرة احتجاج.

قال محمد:

- هل سنشترك فيها يا أبي؟

رد الأب:

- لو وصلنا إليها أو وصلتُ إلينا سنكون مشاركين بالطبع...

من منا لا يفعل ذلك؟

قال محمد:

- ولن نذهب إلى سوق السيارات؟

رد الأب بسرعة:

- سيارات... بل لماذا السيارة؟... والمواجهاتُ تشتعل...

استغفر الله العظيم... ما هذا الذي يجري؟

وفجأة وجد محمد نفسه وأباه قرييين جدا من المظاهرةِ وسد مع صدوت الرصد. اص
كالمطر:

- إنهم يطلقون النار يا أبي... ماذا نفعل؟

وشد الأب ابنه وركضا باتجاه مبنى له حائط ضخ حيث لا أحد.

قال الأب وهو يلهث:



- سننتظر هنا حتى تهدأ الأمور.

ولم يدرك الأب المسكين أنه أصبح أمام مركز لقوة عسكرية إسرائيلية... وأن هـ. ذا الجدار هو جدار الموت.. أخذ يتمتم بأدعيةٍ ويقراً آياتٍ من القرآن الكريم... ثم قال لمحمد:

- هل أنت خائفٌ يا ولدي؟... تعال أضمك...

رد محمد بثباتٍ:

- لا.. لستُ خائفاً... وحياتي ليستُ أعلى من حياتك... وما أظن أنهم سـ. يطلقون النار علينا... أنت غير مسلح... وأنا لم أرم بحجر.

لحظة.. وانهمر الرصاص إلى جهة الحائط... الأب يرتجف... ويصرخ: لا... لا... ويشير بيديه الاثنين إلى جهة الجنود الذين وقفوا عن بعدٍ كالشياطين ورشاشاتهم تدور في كل اتجاه.

صرخ الأب: رحمتك يا رب. مرت رصاصاتٌ دون أن تصيبهما...

ضم ابنه إلى صدره... أفلت محمد منه ناظراً إلى فوهة رشاشٍ يصوب نحوه وكأنه عَيْنٌ من نار.

سمع أزيز رصاصةٍ فارتمي إلى جانبٍ والده... الرصاصة اخترقت ركبتيه اليمنى.
زعق الأب: أصابوك... أصابوك.. قال محمد بصوت خافت: لكنني سأتحمل وأصبر يا أبي. لم
يكد يتم عبارته حتى نفذت رصاصاتُ أخرى.. في جسد الأب وفي صدر محمد. والجد. دي لا
يزال واقفاً مكانه والرصاص لا يزال متواصلاً.

الأب يحرك جسد ابنه المطعون ويداه تمتلئان بالدماء ويكي ويصرخ:

محمد... محمد.. يا ولدي. عندما قلبه على ظهره سكت الرصاص... ورأى الجد. سد
يرتعشُ والعينين زائغتين... ثم ارتخت الأيدي... يدا محمد.. ثم يداه المغموستان بالدم. سد. مع
الأب كأنما محمد يقول: وداعا يا أبي.. وداعا يا بلادي.. يا فلسطين.



ويغيب الأب عن الدنيا وهو يردد: ماتَ الولد.. ماتَ الولد..

في المستشفى كانت أمامه الزوجة... أم محمد.. تقف بكبرياء وشد.. موخ.. لا تبكي..
الأطباء والممرضون يمرون أمامه مطرقين.. صامتتين.. لف..ائف بيد.. ضاء.. وأغطي..ة س..ريـ
أبيض... كل شيء أبيض من حوله ما عدا صورة جدار الموت.. وجنود الم..وت... وس..واد
اللحظة الرهيبة.

يحاول أن يرفع يديه اللتين عانقتا محمدا الغالي في اللحظات الأخيرة... ي..رى دم..اء
نفور.. وتغلي.. وكأنما يسطع فوقها شعاع إلهي.. تتحول الدماء إلى ذرات بيد.. ضاء تكب..ر
وتصبح حبات من اللؤلؤ.. نبعا من الدر الثمين.. تغمر جسده والسرير والغرفة.. بل الع..الم
كله.. يردد بصوت خافت حزين:

- رحمك الله يا ولدي.. يا شهيد الأقصى وفلسطين.. يا درة أبن..ائي وأبن..اء كل
المجاهدين.

رنا البردانة

لم يعرف أحد إلى أين توجهتُ (رنا) بعد أن خرجتُ من المخيم لأنه لم ينتبه إليها أحد. فالجميع مشغولون بما حدث في الصباح الباكر في اعتداء جنود الاحتلال على البيوت. لقد هجموا على الأبواب فحطموها، وعلى الرجال فساقوهم إلى الساحة. أما الفتيان فلم يتركوا. ومنهم واحد بل جروهم كلهم إلى السيارات العسكرية.

وصرخت النساء... وبكى الأطفال الصغار كما لو أن نارا تحرقهم. وتعالَت الأصوات من كل جانب عندما سدد جندي إسرائيلي الرصاص على فتى رمي مجموعة الجنود الإسرائيليين بزجاجة حارقة على أثرها وقع انفجار، وتكاثر الدخان، وارتمى الفتى العربي قتيلًا.

(رنا) الصغيرة النحيلة كانت في الطابق العلوي في بيتهم المتهم ورأت كل شيء.. وبما أن الفتى القتل كان ابن عمها وكانت تحبه كثيرا فقد قالت في نفسها:

لماذا لا أختبئ وراء ذلك السور قريبا من السيارات العسكرية وأرمي جنود الاحتلال بالحجارة؟

ولم تشاور عمتها التي تعيشُ معها بعد أن ماتت أمها.. ولم تشاور غيرها. فهي تدرك جيداً أنهم لن يمانعوا ما داموا جميعاً يجابهون الأعداء.

وبسرعة دخلت (رنا) إلى غرفتها الخالية من الأثاث ما عدا فراشاً واطئاً. ا. وصد. صندوقاً تضع فيه ثيابها... بحثت عن معطفها الشتوي الطويل... ولما لم تجد. ذه. نث. رت. كل. أش. ياء. الصندوق، ثم تذكرت أنهم وضعوه تحت الفراش ليغدوا سميكاً.

سحبته بعنفٍ وارتدته والطقس صيفٌ... والحر شديد.

تسللت وراء البيوت وأخذت تجمع ما أمكنها من الحجارة وتضعها في جيوب المعطف. ولما وجدت أنها لم تتسع لأكثر من عددٍ محدودٍ مزقت بطانة المعطف وحشته بالحجارة الصغيرة، ثم سارت متناقلة وليس في قدمها إلا حذاء كبيراً من البلاستيك تلبسه عمتها أثناء نشر الغسيل.

ولمح أحد الجنود الإسرائيليين بنتاً صغيرةً تمشي ببطء كما لو أنها تسير فوق ب. يض. ارتعدت عندما تقدم منها واصفر لونها. قال لها:

إلى أين أنتِ ذاهبة يا فردة؟ ألا ترين أنه ممنوع المرور؟

ارتبكت (رنا) ثم نظرت بعينين مذعورتين إلى نفسها، واستجمعت جرأتها وقالت:

- أنا مريضة... وذهبةٌ عند خالتي قرب السور لأنه لم يعد أحد في البيت.

تأملها الجندي ثم قال:

ولماذا هذا المعطف ونحن في عز الصيف؟



قالت:

- أنا بردانة.. مصابة بالحمى...

ولم يكمل أسئلته حتى كانت قد بدأت تتبعد لخطوات ثابتة متهيئة لأن تهرب لو د. اول أن يقبض عليها. ولكنه أدار وجهه عنها وهو غير مطمئن تماما. فهؤلاء السكان يملكون م. ن الجراءة والذكاء ما لم يتصوره الطفلة مصابة بالحمى... أو بلوثة في عقلها... (ممكن). فكر في هذا ثم انصرف عنها.

(رنا) لم تكن مصابة بالحمى... ولا بلوثة في عقلها... لكنها حيلتها ضد ع. دوها وإلا قبض عليها وفعل بها ما يفعلونه بغيرها وإذا لم تقل ذلك فكيف تتجو منه وتحقق غايتها؟

وصلت رنا إلى السور وسرعان ما نزعّت المعطف وأفرغت ما فيه م. ن الحجر. أرة أمامها، وأخذت تقذفها حجرا حجرا، وكلما رمت واحدا خبأت رأسها لحظات، ثم رفعها بحذر حتى إذا لم تجد أحدا يراها قذفت الآخر.. وهكذا.



كانت تقفز من الفرخ، وتلك يديها كلما أصاب الحجر جذ. ديا، ولم ت. شعر إلا بيد. د
كالحديد تقبض على عنقها، ثم تصفعها بقوة جعلت الدم ينفر من فمها.

كان ذلك الجندي الذي تركها تمر وقد اعتقد أنها مريضة وبردانة، قال بغضب:

- أهذه أنت إذن.. مريضة وبردانة وتذهبين إلى خالتك؟

هيا.. سأخذك إلى جهنم أنت وخالتك... هناك أدفأ.. ونخلص منكما.. أين بيت خالتك؟

وتكورت (رنا) مثل قطة مدهوسة عندما أمرها الجندي أن تمشي أمامه.. ماذا تفعل. ل؟
لم يعد أمامها إلا الاستسلام.

لكن (رنا) أمسكت بالمعطف... تظاهرت أنها تجمع له لتأخذه معه.. ا. انحذ. ي الجندي
ليبعدها عنه.. رمته فوق رأسه، ثم التقطت الحجر الوحيد المتبقي على الأرض... وبينما كان
يصرخ ويحاول التملص من المعطف كانت (رنا) قد اختفت بين البيوت قرب السور.

وعندما كان الجندي يسأل زملاءه هل رأوا بنتاً صغيرة ترتدي معطفاً ش. توي ط. ويلاً
سميكاً؟... كانوا يهزءون به ويقولون: هل هناك من يرتدي معطفاً في عز الصيف؟

الفهرس

أخي محمد ١١

مريم وسارة ١٨

الدر الثمين إلى روح الشهيد محمد الدرة ٢٨

رنا البردانة ٣٩

رقم الإيداع	٢٠٠١ / ١٠٦٤٢
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧ - ٠٢ - ٦١٧٧ - ٧

٧/٢٠٠١/٦٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)